بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحلقةُ الثَّانيةُ
مِن تَثويرِ بابِ الاستعارةِ فِي رسالةِ «النُّكَتِ» للرُّماني
بقلم
محمود توفيق محمد سعد

توطئة في الشَّريج الثَّانِي

فِي الحلقة الأولى قلتُ: إنّ حديث الرّمّانيّ في باب"الاستعارة" أقيم على ستة محاور، جعل الخمسة المحاور الأولى للتَّصور النّظريّ العلميّ للاستعارة أسلوبًا بلاغيًا في أيّ بيانٍ بليغ، وجعل المحورَ السَّادس لتأويلِه البلاغيِّ لصورٍ من "الاستعارة" في الذّكر الحكيم .

وهُو الحلقةُ الثَّانيةُ مِن تَثوير قوله في بابِ "الاستعارة" .

ولا ريبَ في أنَّ كلّ قولٍ نظريٍّ علميٍّ إنّما يزكُو تطهُّرًا ونماءً فِي رحابِ التَّأويل البلاغيّ للأساليب في البيانين : الكلمة الإنسان ، والكلمة الوحي . فمن اكتفَي بتحصيلِ كلّ ما قيل نظريًّا فِي أيِّ باب من أبواب البلاغة دون أن يرتحل به ؛ ليقيم معتكفًا مستبصرًا متدبرًا ما جاء في البيان البليغ بأفقيه : بيان الإبداع البشري وبيان الوحي قرآنا وسنّةً ، فإنّه لن يكون إلا حاملًا نتاح غيره ، وليس له من خدمة العلمِ نصيب، ولا سيما في هذا العصر الذي أضحى استحضار أي مسألةٍ أو قضيةٍ في أيِّ سفرٍ أمرًا ميسورًا لا يكلّف إلّا بضَع ثوانٍ أو دقائقَ ـ لتبقى القراءة " الاحترافية" بكل مراحلها واستحقاقاتها هي الطريق إلى أن يكون المرْءُ من ثلة طلابِ العلم الساعين إلى مقام" الوراثة النّبوية" المخرجة من الظُّلماتِ كلِّ الظّلماتِ إلى النُّور.

عمد الرّمانيّ إلى أكثر من خمسٍ وأربعين صورة استعارية في القرآن ، فتناوب بعضًا من جوانبه تأويلًا بلاغيًا ، وكلٌّ ساعٍ إلى استبصار أسلوبٍ من أساليب البيان القرآني هو لا محالة عاجز عن الإحاطة برؤية كلّ أبعاد هذه الأساليب ، وعاجز عن الإحاطة بكُلّ ما يحملُه ذلك الأسلوبُ من جليل المعاني الإحسانيّة

وجميلِها وكَميلِها ، فليسَ القرآن معجزًا الخلائق في أن يأتوا بسورة كسورة من سوره، فحسْبُ ، بلْ هو – أيْضًا - المُعاجِزُهُم جميعًا معاجزةً مطلقةً عنْ أن يستفرغوا كلّ ما في سورةٍ من سوره ، وإن قلَّ عددُ كلمها، أوْ أسلوبٍ من أساليبه من المعاني الإحسانية المتجدّدة ، والمتكاثرة في الأفئدة الرّشيدة السّميعة البصيرة، وسيبقي لأخر مؤمن بالقرآن نصيبٌ وفير من المعاني الإحسانية في القرآن تستخرج على يديه لم يكن أحد من السّابقِينَهُ علم بنزيرٍ منها، وفي هذا حثُّ كلّ طالبِ علم على أنّه إنْ أهَّل نفسَه عقلًا وقلبًا وروحًا ولسانًا للتعرّضِ لنفحاتِ الله ﷻ من قرآنه إيمانًا واحتسابًا ومجاهدة في طلبِ العلم النّفيعِ من الذّكر الحكيم ، فعلى قدر تحقيقِ اسْتحقاقاتِك - طالبَ علم - أن يفيض الله ﷻ عليك شيْئًا من جديد وجميل وجليل معانيه الإحسانية يكون لك من الله ﷻ ما لم يعلمه فؤاد بشر – خلا سيّدنا رسُول الله فاستعن بالله ﷻ ولا تعجِزْ

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾[الإسراء]

[――――――――――]

سبق أن أرْشدتُك إلى خصوصية" الاستعارة" القرآنية فيما بنيتْ عليْه من قِبَل المتكّلمِ بها ﷻ ، ومن قِبَل متلقّيها الرشيدِ ومفارقتها الاستعارة في البيان البشري الإبداعي ، وما يجبُ على المتلقي استعارت القرآن أن يكون عليه ؛ ليكون مؤهلًا لتلقي استعاراتِ القرآن .

والرّماني يدير قوله المتدبر صورًا من استعارات القرآن على عدة محاور:

(١) بيان حقيقة المعنى قبل أن يكون في صورة استعارةٍ ؛ لتَتَمكّن من المناظرة بين ما كان عليه قبل تصويره بالاستعارة ، لتعرف أثر الاستعارة في المعنى ، وذلك ما يترتبُ عَليهِ العرفان بأثر الاستعارة في متلقيها، ويترتب عليه العرفان بالغرضِ الذي يراد تحقيقه من اصطفاء الإبانة عن المعنى بأسلوب الاستعارة

هذه المناظرة بين ما كان على المعنى قبل التَّصوير الاستعاري ثُمَّ ما صار إليه بالتصوير الاستعاريّ بالغُ الأهمية، لما يترتب عليه من العرفانٍ بما يجبُ عَلَيْك العرفان بها كما بينتُه لك ؟

وكذلك منْ طرائق إدراك أثر "الاستعارة" أوْ أيّ أسلوبٍ في المعنى أن تستبدل به أسلوبًا آخر تُصور به المعنى، وانظر ما الَّذي كان للمعنَى مِن الأسلوب الذي استبدله بِها ، وهذا مسلكٌ بالغُ النفع لمن شاء أن يكون بصيرًا بشيْءٍ من أثر الاستعارة القرآنية في المَعنى ، وفِي المُتلقّي.

(٢) بيان أنَّ الاستعارة أبلغ وأوجز ، ووجه ذلك

(٣) بيان المعنى الجامع بينهما

يقُولُ : « ونحن نذكُر ما جاء في القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة» إعرابُه بقوله:"ونحن" لا يصدر به عن استعظام نفسِه، فأهلُ العلم وطلابُه حين يستعملون ذلك الضمير متصلًا ، أومنفصلًا، لا يقومُ في نفوسهم – معاذَ الله تعالى – شيْءٌ من العظمة والافتخار؛ إنّهم على علم فتيّ أن حضور النفس ورؤيتها في العمل مِمَّا يفسِدُه، ولا يصلُحه، فيكونون كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ، فهم مسْتعيذون بالله - تعالى - من ذلك ، إنّما هم يشيرون باستعمالِ ذلك الضميرِ إلَى أنّ ما هم ذاكروه ما هو إلّاَ تحصيلٌ من مقاولات سلفهم وعصريهم من أهل العلم ، وأنّهم غير متفردين بذلك.(١)

****

[المَوضِعُ الأوّل]

يقولُ الرّمانيّ : « قال الله -عزَ وجلّ: ﴿وقدِمْنا إلَى ماعمِلوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] حقيقةُ "قَدِمْنَا" هنا عمَدنا و " قَدِمْنَا" أبلغُ مِنْه ؛ لأنّه يَدُلُّ علَى أنَه عاملهم معاملةَ القادِم من السفر ؛ لأنّه عاملهم مِن أجلِ إمهالِه لهم كمعاملةِ الغائبِ عنهم ، ثُمَّ قَدم ، فرآهم على خلافِ ما أمرهم.

وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال .

والمعنى الّذي يجمعُهما العدلُ ؛ لأنّ العمدَ إلى إبطالِ الفاسِد عدلٌ ، و"القُدومُ" أبلغ لما بينا.

---

(١) أذهب إلى أن طالب العلم حين يستعمل ضمير المتكلم المفرد متصلًا أو منفصلًا، فهو يشير بذلك إلى تحمله مسؤولية ما يقول، وحين يستعمل ضمير المتكلم" نا"أ و"نحن" فهو يشير إلى ما ذكرتُ في المتن. فأمر العظمة والافتخار محروم من أن يطوف حول حمى فؤاده وعقله ونفسه. إنه طالبُ علمٍ

وأمّا هباءً مَنثورًا ، فبيانٌ قَد أَخرجَ ما لا تقعُ عليه الحاسّةُ إلى ما تقعُ عليه حاسة.» ([2])

استهل الرماني قوله ببيان أن حقيقة قوله ﷻ ﴿ قدمنا﴾ عمَدنا ، وأن الإعراب بقوله ﴿ قَدمْنا﴾ أبلغ ، إن أبقينا صيغة"أفعل" على حالها، فالمراد هنا أكثرُ مبالغة في تصويرِ الفعل ،وليس أبلغ أي أفضل بلاغة، ومطابقة لمقتضَى الحال، وإن جردناها من المتفضيل، فقوله "أبلغ" أي كمالٌ في مطابقته لمقتضى الحال. ولكن ظاهر الأمر أن صيغة"أفعل": "أبلغ" على حالها، ومعنى المفاضلة قائم، لأنّه ينظر إلى الكلمة القرآنيّة في ضوء حقيقة الفعل.

إذا نظرت إلى ما قال إنّه حقيقة الفعل﴿ قدمنا﴾ رأيت فيه معنى العناية والقصد وهو يُبيّن وجه قوله تعالى﴿قدمنا﴾ أبلغ من" عمدنا" بأنّه « يدلُّ على أنّه عاملهم معاملة القادِم مِن السَّفر ، لأنّه عاملَهم من أجلِ إمهالِه لهم ، كمعاملة الغائب عنهم ، ثُمَّ قدِم ، فرآهم على خلاف ما أمرهم. » ([3])

وهذا الّذي قاله منطلقٌ فيه أنَّ المنقول إليه أقربُ حضورًا وتصورًا في وعْي المتلقي لما أنّه يراه عيانًا في حياته ، بيْنا قدوم الله ﷻ إلى أعمالهم غيبٌ ، فهو أعظم في الحقيقة ممّا أوَّله به، ولكنّه إذا ما كانت الصفة فيه أقوى، فإن ما أوّل به هو أقوى وأسرع حضورًا وتصورًا، لأنّه مشهود ، بيْنما قدوم الله

---

[2]) النكت. ص: ٨٦

[3]) بفقول الطاهر ابن عاشور في تفسيرة الآية:« كانوا في الجاهلية يعدّون الأعمال الصالحة مَجلبة لخير الدنيا لأنها ترضي الله تعالى فيجازيهم بنعم في الدنيا إذ كانوا لا يؤمنون بالبعث ، وقد قالت خديجة للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) حين تحيّر في أمر ما بدأه من الوحي وقالَ لها : (لقد خشِيتُ على نفسي) ، فقالت : (والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم وتَقري الضيف وتعين على نوائب الحق) . فالظاهر أن المشركين إذا سمعوا آيات الوعيد يقولون في أنفسهم : لئن كان البعث حقّاً لنجدنّ أعمالاً عملناها من البرّ تكون سبباً لنجاتنا ، فعلم الله ما في نفوسهم فأخبر بأن أعمالهم تكون كالعدم يومئذٍ .

والقدوم مستعمل في معنى العَمْد والإرادة ، وأفعال المشي والمجيء تجيء في الاستعمال لمعاني القصد والعَزم والشروع مثل : قَام يفعل ، وذَهب يقول ، وأقبل ، ونحوها . وأصل ذلك ناشيء عن تمثيل حال العامد إلى فعل باهتمام بحال من يَمشي إليه ، فموقعه في الكلام أرشق من أن يقول : وعَمَدْنا أو أردنا إلى ما عملوا .

و (مِن) في قوله : « من عمل » بيانية لإبهام « ما » وتنكير «عمل » للنوعية ، والمراد به عمل الخير ، أي إلى ما عملوه من جنس عمل الخير .

والهباء : كائنات جسمية دقيقة لا تُرى إلا في أشعة الشمس المنحصرة في كوّة ونحوها ، تلوح كأنها سَابحة في الهواء وهي أدق من الغبار ، أي فجعلناه كهباء منثور ، وهو تشبيه لأعمالهم في عدم الانتفاع بها مع كونها موجودة بالهَباء في عدم إمساكه مع كونه موجوداً ، وهذا تشبيه بليغ وهو هنا رشيق . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وبُسّت الجبالُ بسّاً فكانت هباءً منبثاً ﴾ [الواقعة : ٥ ، ٦] .

والمنثور : غير المنتظم ، وهو وصف كاشِف لأن الهباء لا يكون إلاّ منثوراً ، فذكر هذا الوصف للإشارة إلى ما في الهباء من الحقارة ومن التفرق . »[التحرير والتنوير.ج: ١٩ ص:٨]

ﷻ إليْه غيبٌ لا سبيل إلى إدراك كيفيته، فهو من قبيل إخراجِ ما لا يُمكن إدراك كيفيته إلى ما تدرك كيفيته وليس من قبيل ما لم تكون الصّفة فيه أقوَى إلى ما كانت الصّفة فيه أقوَى من حيثُ هي لا من حيُثُ سرعة حضوره في وعي المتلقّي.

يقُول الزمخشري (ت: ٥٣٧هـ) فـي تأويل الآية في كشافِه:« ليس هاهنا قدوم ولا ما يشبه القدوم، ولكنْ مُثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عمِلوها في كفرهم من صلة رحمٍ ، وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف، ومنّ على أسير، وغير ذلك من مكارمِهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى أشيائهم، وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها أثرا ولا عثيرا .

والهباء: ما يخرج من الكوّة مع ضوءَ الشمس شبيه بالغبار.

وفي أمثالهم: أقل من الهباء مَنْثُوراً صفة للهباء .

شبّهه بالهباء في قلته وحقارته عنده، وأنه لا ينتفع به، ثم بالمنثور منه، لأنك تراه منتظما مع الضوء، فإذا حركته الرّيح رأيته قد تناثر وذهب كلَّ مذهب. ونحوه قوله ﷻ : ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [سُورة الفيل] لم يكفِ أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفا بالأكال .»

وعُظم ما قال الرمخشري في شأن تأويل الفعل المسند إلى الله ﷻ ﴿ قَدِمنا﴾ لست بالذاهب إليه.

الذي أذهب إليْه أن أفعال الله ﷻ ممّا لا أقول فيها بالمجاز بل هي على الحقيقةِ ،وأن علينا ا،ت نستعر جلالها وأن كنا لا نعلم كيفيتها، فيكفينا الشعور الصادق بجلالها ؛ لأن هذا الشعور هو الذي يترتب عليه تحقق " الثمرة" التي عبر عنها الرماني بقوله: « وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال» هذه الثمرة هي أكثر تحققًا إذا تحقق الشعور الصادق بجلال فعل الله ﷻ المسند إلى ضمير العظمة والكبرياء والخبروت والرهبوت. ممّا علل به الرماني الباعث على الاستعارة في الآية.

وقول الرّماني:« والمعنى الذي يجمعهما العدل ؛ لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بينا » بيان للجامع بين طرفي الاستعارة، ، وهو بهذا يبين لك أن هذا المعنى تعدد صورالإعراب عنه منها ما هو حقيقة ، ومنها ما هو استعارة ، إلّا أَّن ما هو الاستعارة أبلغ مما هو في الحقيقة ، ولو كانا سواء، لما كان هنالك مقتضٍ لأن يعدل عن الحقيقة إلى الاستعارة، فإذا ما قامت

الحقيقة الوفاء بحقه فذلك محاجزٌ عن العدول عنها إلى غيرها. مما يوجب على المتلقي إذا ما تَلَقّى أيّ استعارة في بيان بليغ ولا سيما بيان الوحي أن يكون من همّه الأعظم أن يُبِين عن المفارقة الجوهرية بين حال المعنى في الحقيقة، وحاله في الاستعارة، ،والحاجة إلى ما جاءت به الاستعارة ، ممّا يجعلها حينئذٍ ضرورة تبليغية .

وقوله « وأمَّا هباءً منثورًا ، فبيانٌ قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه حاسة. » ظاهر عبارته هذه أنه ذاهبٌ إلى أن قوله «جعلناه هباءً منثورًا» من قبيل التّشبيه، على الرَّغم من أنَّه لم يذكر وجه الشبه، والأداة.

تبيينٌ وتعقيبٌ

قوله ﷻ : ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا﴾[الفرقان:٢٣]

سياقه قول الله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

الآية في سياقها المديد سياق الفرقان بين الحق وأهلِه ، والباطل وأهله هذا المناظرة بينهما أمرٌ مركزي في القرآن ، وهي تفصيلٌ لقوله ﷻ : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد :١٠) هو سِياق ما كان من الذين لا يرجون لقاء الله ﷻ ، وما سيكون لهم في مصيرهم يوم القيامة بسبب مما كان منهم في مسيرهم يوم القيامـة.

السياق قائم على منهج المقابلة بين العمل وجزائِه، ليتحقق في الفؤاد الرشيد كمال العدل الإلهي مع أولئك .

يتمثل صنيعهم في مسيرهم في الدُّنيا عنتًا واستكبارًا،وعُتُوًّا . يطلبون ما لا يُصلحُهم، وما لا لا يصلُحون له، ولم يبصروا حكمة الله ﷻ ورحمته في أن أرسل إليهم رسلًا من أنفسهم، ليكونوا أقربَ إليهم، وليكونوا هم أقدر على الفهم عنهم . ولكنهم لِعَنَتِهِم قالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ وهم يعلمون أنّ "الملائكة" لَيْسُوا من جنسِهم ، وأنّهم لا يقتدرون على التّعايش معهم، بل،ولا

على رؤيتِهم، فلا يُؤتِي إرسالُ الملائكة إليهم ما هو مرجوّ من الإرسالِ ، فيكون حينذاك إرسالُهم إليهم عبثاً، والله ﷻ منزهٌ عن العبثِ.

وهم لم يكتفوا بهذا ، بل قالوا: ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ تصاعَدوا في العُتُوّ، وكأنهم لم يبصروا خطلهم، وفساد عقولهم في طلبهم نزول الملائكة إليهم، فتصاعدوا في عتوهم، وطلبوا رؤية ربهم. وهم يعلمون علم يقين أن ذلك لم يكن لأمةٍ من قبلهم. وأن الله ﷻ لم يكن منه ذلك لعجزه عن ذلك، بل لأنّه لا يصلح لهم، ولا يصلحهم، فكيف يكون لهم ربًا ، وهو يفعل لهم ما لا يصلحُ لهم، ولا يصلحون له ، ولا يُصلحهم، وجلال الألوهية ، وجمال الربوبية لا يواءم معه تحقيق ما هم يطلبونه جهالة وعنتًا.(٤)

والله تعالى يبن لنا أنهم بهذا قَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، رأوا أنفسهم أكبر مما هي عليه، أقاموا أنفسهم مقام القادر على رؤية الملائكة ورؤية ربهم،وأنهم أكبر من أن يكون رسولهم من أنفسِهم.

عجزوا عن العلم بحقيقة أنفسِهم ، والله ﷻ أودع في كلٍّ منا آياتٍ تقول له صباحَ مساءَ إنما أنت عبد، وإنما أنت بي، وإني أن تخليت عنك كنت أضعف شيْءٍ ، وأعجزه،وأحقره، فمن عجز عن رؤية نفسه على حقيقتها، أيطيقُ أن يرى غيره، فضلًا عن يرى الملائكة، فضلًا عن أن يرى ربه ﷻ ؟

الآية تصور لنا عظيم حمق الذين لا يرجون لقاء ربهم، ومن ثَم ختم الله ﷻ الآية بقوله﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ الله ﷻ هو النّاعت عتوهم بأنّه " كبير" فعلينا أن نتصور كبر عتوهم في ضوء عرفاننا بعظمة النّاعت عتوهم بهذا .

والله ﷻ يبين أن رؤيتهم في الدنيا الملائكة ليست خيرًا للعصاة والمفسدينن ،فسنته ﷻ أن رؤية العصاة الملائكة إنما هو نذير شؤمٍ عليهم، ، مما يجعلهم يقولونها ﴿حجرًا محجورًا﴾ على ما اعتادوا قولها حين ينزل بهم نزير شؤم ، كأنهم يستعيذون من ذلك ، فهم من بعد أن تمنوا رؤيتهم ، فلو استجيب لهم ، لانقلب حالهم بأن يستعيذوا مما طلبوا. وذلك مصور عظيم حمقهم أن يتمنون ما ستعيذون منه إن تحقق لهم ما يتمنونه.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢)

---

٤) أبى ربنا ﷻ أن ينظر إليه أحد في الدنيا من أهل الأرض رأفة بهم ، وليس بخلًا عليهم ، فهو ربهم، لإنهم على ما هم عليه ليسوا بأهل للنظر إليه ، وسيتجلى لأأهل الجنة كل جمعة بلنظر إليه لأنهم جعلوا صالحين لذاك.

أنا وأنت علينا أن نفهم حقيقة النعت في ضوء شأن الناعت، فليس قوله ﷻ ﴿ كبيرًا﴾ كمثل قول غيره على شيْءٍ «كبيرًا» وما دام عتوهم قد نعته العليم الخبير ﷻ بأنه كبير ، فكيف يكون جزاؤهم على ما كان منهم في مَسيرهم في الدنيا. يأتيك قوله تعالى﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]

علينا أن نفهم قوله «قدمنا» في ضوء شأن من أسند إليه الفعل .

القدوم هنا أمرٌ يليقُ بجلال الله ﷻ وهوأمرٌ غير مقصُور على ما يكونُ يوم القيامة، كلا بل ذلك متحقق في الدنيا، وفي الآخرة، لا تحسبن أن الله ﷻ تارك عملهم أيًا كان في نظر الخلائق مما ينتفع به صَاحبه ، كلا كل أعمالهم لا ينتفعون بها ، وما تراه مما يعود عليهم منها من متاع الدنيا ، فلا تحسبن أن ذلك نافعهم ، قد يتراءى لك ذلك، ولكنه في الحقيقة وبال عليهم ، فكما أن الله ﷻ يقيم العبد المؤمن بعمله الصالح في النغيم النفسيّ والعقلي والقلبيّ والروحي في الدنيا ، فهو يدخله به جنته في الدنيا بمجرد أن يتحرك فؤاده رغبة في العمل الصالح، وكلما تقدم خطولة لإنجازه زاده الله ﷻ نعمًا من جنته في الدنيا، ولا تحسبن أن الله ﷻ يمنحك مثوبتك التي يسميها تفضلًا بالأجر، قبل أن يجفّ عرقك من عملك الحسنى ، هو ﷻ أكرم من ذلك هو يسوق إلَيْك مثوبتك ،بمجرد أن يتحرك فؤادك لصناعتها ، بل إن تحرك فؤادك هذا هو من مثوبتك. توفيقك إلى أن إرادة أن تصنع ما يُرضيه هو طليعة المثوبة، وتلذذ فؤادك بهذه الإرادة هو من جليل ثوابه لك ، وجميله.

والله ﷻ - أيَضا - لا يؤخر العاملين السُّوَى إلى يوم القيامة، هو يقدم إلى عملهم في دنياهم بمجرد إنجازهم ، فيجعله غير نافع لهم ، في دنياهم، كما سيكون غير نافعٍ لهعم في أخراهم.

وتأويل "الرماني: قول الله ﷻ ﴿ وقدِمْنَا إلَى مَا عَمِلُوا﴾ بقوله :﴿ حقيقةُ "قَدِمْنَا" هنا عمَدنا و"قَدِمْنَا" أبلغُ مِنْه ؛ لأنّه يَدُلُّ علَى أنَه عاملهم معاملةَ القادِم من السفر ؛ لأنّه عاملهم مِن أجلِ إمهالِه لهم كمعاملةِ الغائبِ عنهم ، ثُمَّ قَدم ، فرآهم على خلافِ ما أمرهم. ﴾ ممّا لا أذهبُ إليه. لا أذهبُ ‘لى القول بأن الفعل" قدم" مسنا إلى " نا" من قبيل المجاز. هذا الفعلُ أمرٌ غيبيّ لأنه من أحداثِ الساعة، يحبُ أن نفهمه في ضوء شأن فاعلِه ﷻ وأنا يكفيني أن يشعر فؤاد بجلالِ الفعلِ المقررِ فيه المهابة من التلبث بشيْءٍ مما يكونُ من الذين لا يرجون لقاء الله ﷻ ، فإذا تحققت تلك الخشية،وذلمك الرهب والرعب، فمن

العبث تجاوز ذلك، فمكل محاولة تأويلية تسعى إلى كشف كيفية الفعل ، لن تؤتي شيئًا من ذلك الشعور، فأنا ذاهبٌ إلى أنّ قوله ﷻ :﴿وقَدمنَا إلَى مَا عملوا﴾ هو على الحقيقةِ التي سنركها يوم القيامة . ذلك يقين راسِخ في فؤادي، ألقى الله ﷻ به، فإن أنت رغبت عنه إلى ما قال الرماني، فأمرك إلَيْك. حسابك بالحسنى وغيرها إلى ربّك ﷻ .

وهو ﷻ لم يقل قدمت إلى ما عملوا، قال﴿ قَدمْنا﴾ بـ«نا» العظمة والجلال والكبرياء والقهر والجبروت تجلي إلى عملهم بما يسحقه ، فجعله هباء منثورًا ،وهو ﷻ لم يقل ﴿هباءً﴾ فحسي،بل نعته بقوله﴿منْثُورا﴾ وقد يظن أن في الإعراب بقوله:﴿هباء﴾دون قوله:﴿منثورًا﴾ كفاية، لكنه إن قال:﴿هباء﴾دون قوله:﴿منثورًا﴾ لظنّ أنّه هباءٌ مجموعٌ بعضُه إلى بعضٍ، فإعرب القرآن بقوله ﴿منثورًا﴾ بصيغة اسم المفعول دون أن يقول: هباء متناثرًا ، ليفهمك أنه ﷻ قد نثره نثرًا لا طاقة لأحد عليه غيره، ولا طاقة لأحد أن يجمع بعضَه إلى بعضٍ .

ولا تحسبن أنَّ ذلك على سبيل التشبيه كما ذهب إليْه بعضُ أهلِ العلم، كلا، إنما هو جعلٌ على الحقيقةٍ وليس جعلًا له كمثلِ الهباء المنثور.

أذهبُ إلى أنَّ الفعل«جعل» مسندًا إلى الله ﷻ هو من قبيل الحقيقة دون تشبيه،ولا سيما ما كان قولًا عما في عالمِ الغيب، لا عالم الشهود.(٥)

****

[المَوضِعُ الثّــاني]

وممّا عَمَد الرُّمّاني إلى تاويله قول الله ﷻ :﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر:٩٤]

يقول :« حقيقته فبلغ ما تؤمر به ، والاستعارة أبلغ من الحقيقة ؛ لأنّ الصدع بالأمر لا بُد له من تأثير كتأثير صدع الزّجاجة ، والتّبليغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزله ما لم يقع .

---

٥) في هذه الاية برهان صحيح صريح قطعي الدلالة على أن كلّ من لم يؤمن بما جاء به سيدنا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – وما جاء به أنبياء الله ﷻ جميعا من قبله كل عمله وإن كان ظاهره نافعًا فإنه يوم القيامة هباءٌ منثور. فأدعياء العلم الذين يتصايحون صباح مساء أن الذين يعملون الأعمال النافعة من غير المؤمنين بسيدنا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – سيدخلون الجنة بهذه الأعمال. إنما هم ضالون مُضلون.

والمعنى الّذي يجمعهما الإيصال ، إلَّا أنَّ الإيصال الّذي له تأثير كصدع الزّجاجة أبلغ »([٦])

عُنِيَ الرُّمانِيّ ببيان ثلاثة أمور في هذه "الاستعارة" :

١) الحقيقة الَّتي انتُقل منها.

٢) منزلة المعنى الاستعاري من المعنى الحقيقي المنتقل منه .ووجه ذلك.

٣) المعنى الجامع بين المنتقل إليه والمعنى المنتقل منه .

هذه الثَّلاثّة مرتكزات في منهجه التّأويلي ، وهو يوردها في عبارة وجيزة ، مع اقتداره على أن يبسط القول فيها، بين أنّه عامدٌ إلى تلك الوجازة لأمر نفيع :

راعَى بذلك حالَ طلاب العلم في زمانِه ، وقراء رسالته ، وعنوانها " النّكت" فكان بليغًا في هذا .

حرص على أن يجعل لطلاب العلم عملًا يخدمون به العلم بتفصيل ما أوجز كلّ بحسبِ حاجة زمانه وقومه، فحاجات طلاب العلم في الإيجاز والبسط تتفاوت زمانا ومكانًا، فأهل العلم يمارسون القول على قدر حاجة كلاب العلم في زمانهم. ([٧])

وهذا ما أنا صانعه ان شاء الله هنا مع بعضِ طلابِ العلم في زماننا.

تبيينٌ وتعقيبٌ

---

[٦]) غير خفي عليك أن "الاستعارة" في قوله" فاصدع" هي عن علماء مدرسة" المفتاح" من قبيل الاستعارة التصريحية التبيعية في الفعل، والرماني لا يقسم الاستعارة إلى تصريحية،ومكنين،لا إلى تصريحية أصلية،وإلى تصريحية تبعية.
السكاكية يعلي االرغبة عن التبعية ،وردها إلى المكنية بحيث يجعل قرينة التبعية مكنية،وهذا الذي ذهب إليه السكاكي برد التبعية إلى مكنية إن استقام له صنعة علمية، لا يستقيم له غطراده في واقع البيان البليع، فالسياق والقصد هو الذي يعلى اعتبارها تبعية أو مكنية، فمذهب السكاكي غير مطرد .

[٧]) من الأبعاد التربوية لأهل العلم الربّانيين وهم يؤلفون أسفارهم أن يقيموا معالم الطريقِ لطلاب العلم يهتدون بها، فيتركوا في بيانهم ما يحتاج إلى تبيين أو تفصيل أو إجمالٍ أو تمثيل أو استدلالٍ حتى يمتلك طلاب العلم مهارات التفصيل لما أجمل،والتفسير لما أبهم، والإجمال لما فُصل والاستدلال على الحق بالحق، ونقض الباطل بالحق ، كل ذلك منهاج تربوي قويم يسعى إليه الأعيان من أهل العلم في أسفارهم ،وعليك – طالب علم ووراثة - وأنت تقرأ سفرًا لواحد من هؤلاء أن تستبصر منهاجه التربوي هذا، وترصده لتتأسى به، إيمانًا واحتسابا ،وبرا بشيخك،وعونا على من ستبتلى بتعليمهم وتربيتهم وحملهم إلى باب ربهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – مخلصين متقنين نصرة الحقّ بالحق ،وصناعة الخير ونشره في الناسِ كل الناسِ إيمانًا واحتسابًا.

الجملةُ القرآنيّةُ التي أولها الرّماني : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ جاءت في سياقِ سورة «الحجر» وفي رأس المعنى القرآني فيها، فهي قريب من ختامها.

وسورة«الحجر»المكية ذات طابعٍ منهجي في الدعوةِ ، قائمة على المواجهةِ ،وعلى الثبات على الحق،ومنابذة الباطلِ وأهله،والتمسك الفتي بالمبدأ الحقّ واستمرارية العمل الصالح المصلح بمدد من القين القطعي بأن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ناصرٌ الحق ، وزاهق الباطل.

ذلك هو بعضُ المعالم الكبرى للقول الألهي المعجز في هذه السورة، في ختام هذا السياق جاء قول الله ﷻ :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)[الحجر]

في هذا السياق البيني والسياق المقامي الذي نزلت فيه السورة،وهو سياق اشتد فيه عتو المشركين في مكة على المسلمين،ولمّا يؤذن للمسلمين المقاومة بالسيفِ

كانت مرحلة التكوين ثلاث عشرة سنة في مكة،وسنتان في المدينة، ثم جاءت مرحلة التمكين في ثانية أعوامٍ ،وفي هذا من العبرة ما فيه. استعجال الثمرة قبل اكتمال التكوين مفسدٌ مهلك.

في هذا السياق جاء الأمر الإلهي موجهًا إلى سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم - :﴿ اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا الحملُ الثقيل النبيل أقامه الله ﷻ عقب الامتنان بجليل العطاء الذي يملأ الفؤاد يقينًا وثباتًا واستشرافًا، هذا الامتنان ينبجس بالنور في الفؤاد حين تجلهم الظلمات خارجه، :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ليس من وراء هذا الامتنان امتنان. ولإيراد الامتنان في أسلوب قسم طوي فيه التصريح بالمقسم بِه، والإيماء إليه بهذه "اللام" لم يأتِ لاقتضاء حال المخاطب ﷺ كلّا بل جاء إعرابًا عن عظيم شأن العطية من ربّ العالمين. فقسمه ﷻ على هذا

المعنى بالغ الإعراب عن عظيم قدره، وإيماء إلى أن هذه العطية والمنة هي التي منها يكون الحق والخير والجلالُ والجمال.

وجاء عقب هذا الامتنان بما النهي هما لا يأنس بحق هذا الامتنان النهي عن مد العين إِلَى مَا مَتَّع الله ﷻ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ معانديه الذي يضيقون الخناق على دعوته وأتباعِه .

وفي هذا النهي إيماءٌ إلى أن ما متعوا به إنما هو غير نافعهم لهم، بل هووبال عليهم، فكل ما يصرف عن الحق والخير إنما هو نقمةٌ لا نعمة، وهذا معيارٌ يتبين به للعبد إن كان الذب جاءه من الدنيا نعمة أو نقمة، إن شغلك عن ربك ﷻ فإنما هو ابتلاء نقمة،وإن شغلك بربك فإنما هو مطيتك إلى محبته ورضوانه . (٨)

والنهي عن أن يشغل نفسه بهم ، فيحزن على ما هم فيه من عناد واستكبارٍ ، وصرفه إلى أن يفرغ فؤاده من حزنه عليهم، وإلى أن يُخْفِضْ جَنَاحَه ﷺ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩) ففي ذلك الخفض تذكية لعزائمهم، وتقوية ليقينهم بأن مآل الأمرِ إليهم،وأنهم في حماية الله ﷻ ثم أمره بتهديدهم بيأنه هو النَّذِيرُ الْمُبِينُ لهم ،وشبه حال معانديه بما كان عليه حال قوم سيّدنا صَالح عليه السلام معه وما كان لهم من الله ﷻ عقابًا على ما كان منهم، وهم بذلك عليم، فقوم صالح عربٌ، وبيتوتهم «مدائن صالح» قائمة يرونها في أسفارهم، فالذي كان من أسلافهم

---

٨) يقول الطاهر ابن عاشور في تأويل هذه الآية في "التحرير والتنوير":« وَلَوْلَا أَنَّ الْجُمْلَةَ الَّتِي وَقَعَتْ قَبْلَهَا ك[﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (الحجر:٨٧)]انَتْ بِمَنْزِلَةِ التَّمْهِيدِ لَهَا وَالْإِجْمَالِ لِمَضْمُونِهَا لَعُطِفَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ لِأَنَّهَا تَكُونُ حِينَئِذٍ مُجَرَّدَ نَهْيٍ لَا اتِّصَالَ لَهُ بِمَا قَبْلَهُ، كَمَا عُطِفَتْ نَظِيرَتُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه [١٢٩- ١٣١] : ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا. ﴾ فَلَمَّا فُصِلَتِ الْجُمْلَةُ هُنَا فُهِمَ أَنَّ الْجُمْلَةَ الَّتِي قَبْلَهَا مَقْصُودَةُ التَّمْهِيدِ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ وَلَوْ عُطِفَتْ هَذِهِ لَمَا فُهِمَ هَذَا الْمَعْنَى الْبَدِيعُ مِنَ النَّظْمِ.

وَالْمَدُّ: أَصْلُهُ الزِّيَادَةُ. وَأُطْلِقَ عَلَى بَسْطِ الْجِسْمِ وَتَطْوِيلِهِ. يُقَالُ: مَدَّ يَدَهُ إِلَى كَذَا، وَمَدَّ رِجْلَهُ فِي الْأَرْضِ. ثُمَّ اسْتُعِيرَ لِلزِّيَادَةِ مِنْ شَيْءٍ. وَمِنْهُ مَدَدُ الْجَيْشِ، وَمَدُّ الْبَحْرِ، وَالْمَدُّ فِي الْعُمُرِ. وَتِلْكَ إِطْلَاقَاتٌ شَائِعَةٌ صَارَتْ حَقِيقَةً. وَاسْتُعِيرَ الْمَدُّ هُنَا إِلَى التَّحْدِيقِ بِالنَّظَرِ وَالطُّمُوحِ بِهِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَدِّ الْيَدِ لِلْمُتَنَاوِلِ، لِأَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ نَظَرُ الْإِعْجَابِ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ حُسْنِ الْحَالِ فِي رَفَاهِيَةِ عَيْشِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ، أَيْ فَإِنَّ مَا أُوتِيتَهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فَلَوْ كَانُوا بِمَحَلِّ الْعِنَايَةِ لَاتَّبَعُوا مَا آتَيْنَاكَ وَلَكِنَّهُمْ رَضُوا بِالْمَتَاعِ الْعَاجِلِ فَلَيْسُوا مِمَّنْ يُعْجِبُ حَالَهُمْ. »

٩) يقُول الطاهر:« خَفْضُ الْجَنَاحِ تَمْثِيلٌ لِلرِّفْقِ وَالتَّوَاضُعِ بِحَالِ الطَّائِرِ إِذَا أَرَادَ أَنْ ينحطّ للوقوع حفض جَنَاحَهُ يُرِيدُ الدُّنُوَّ، وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ إِذَا لَاعَبَ أُنْثَاهُ فَهُوَ رَاكِنٌ إِلَى الْمُسَالَمَةِ وَالرِّفْقِ، أَوِ الَّذِي يَتَهَيَّأُ لِحَضْنِ فِرَاخِهِ. وَفِي ضِمْنِ هَذِهِ التَّمْثِيلِيَّةِ اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ، وَالْجَنَاحُ تَخْيِيلٌ. وَقَدْ بَسَطْنَاهُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ فِي قَوْلِهِ: وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ [سُورَةَ الْإِسْرَاء: ٢٤] وَقَدْ شَاعَتْ هَذِهِ التَّمْثِيلِيَّةُ حَتَّى صَارَتْ كَالْمَثَلِ فِي التَّوَاضُعِ وَاللِّينِ فِي الْمُعَامَلَةِ.»

من الصّدّ عن الحقِّ والخيرِ ومعاداة أهلهما هو الذي يكون منهم ، فجزؤاهم على ذلك إن لم يهود إلى ربهم ﷻ كمثل مجزاء قوم صالح سواء بسواء. ،وهم أضعف من قوم صالح - عَلَيْهِ السّلامُ -:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾ [الرُّوم] فأقسم الله تعالى على ذلك ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾[الحجر]

أقسم الحق ﷻ بربوبيته لرسول الله ﷺ ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ فهو من أجل القسم وأجمعه للفيوضات الربوبية، وفي هذا إيماء إلى أن المقسم عليه إنما هو من عطاءات الربوبية سيّدنا رسُول الله ﷺ وأمته المحبة له، فقوله تعالى ﴿ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه من التهديد لمن عاند وصد عن الحقّ ما فيه ،وفيه تثبيتٌ وبشرى لسيّدنا رسُول الله ﷺ ومن آمن به ،وإقامةٌ لليقين الكميل في الأفئدة أن الحق زاهق الباطل، ومن ثَم جاء الأمر لِسيّدنا رسُول الله ﷺ :﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾[الحجر] مرتبًا هذا الأمر على ما سبقه من البشرى بانتصار الحق وانكسار الباطل . وهذه الآية نزلت والنبي ﷺ وأصحابه مختفون في دار ابن الأرقم، اتقاء لعنت أعداء الحق والخير، فهو ﷺ ظل يدعو الناس في خفية حتى نزلت هذه الآية بكلّ ما تحمله من وعد بعلو شأن ما أومر به ، وأنّه قد انتهى عهد الخفية، وانتقل إلى عهد الجهر وصدع باطل خصومه بما أُنزل إليْه.

ولم يأت البيان بقولنا "اجهر بما تؤمر" أو "أعلنْ ما تؤمر به" بل جاء الإعرابُ بقوله ﴿فاصْدَعْ﴾ أي اجهر جهرًا يقيم في رؤسهم صدعًا، وفي قلوبهم صدعًا لما يثقون بأن الغلبة لهم، وصدعًا بالنور ظلمات جهالتهم وعتوهم وظلمهم واستكبارهم، ففي الإعراب بالفعل «اصدع» دون"اجهر" إيماء إلى أن المأمور به جهر بالدعوة يُحدث في المناوئين صدعا في نفوسهم، وعقولهم و جميع أحوالهم، فلا يبقى من أمرهم صغيره وكبيره ،وحالهم ظاهره وباطنه شيْءٌ إلا وتصدَّع وتمزَّق وتفتّت ، على نحو لا يعود إلى ما كان عليه بتة.

وفي هذا إعلانٌ لبَدء تهاوي كلمة الكفر، وتساقط بنائه. وكلُّ هذا يفعِمُ فؤاد سيّدنا رسُول الله ﷺ وأصحابه ﭬ الطمانينة بأنهم المنصورون وأنّ ما بعث به

مِن الحقّ والخير هو الّذي له الكلمة العليا على الباطل والشَّر وأهله إلى قيام الساعة.

أرأيت إلى هذا الشَّعور الجليل، وإلى لذة اليقين ؟

في قوله تعالى﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ استعارة عند أهل البيان ، نظرًا إلى أن الفعل «صدع» محور معنى مادته :" انفراج في الشّيءِ ومنه صدَع الزجاجَ فلقه، وفرق بين أجزائه. وصَدَع بالحقِّ، إذا تكلَّمَ به جهاراً فهوأمره بالجهر بما أمر به، فيه وعد بأنَّ ذلك بأن ما أمر به، سيعلو، وسيفرق بين الحق الذي جاء به،والباطل الذي فيه معاندوه.

وأهل العلم يجعلون ذلك من قبيلِ

ويمكنك أن تقدر المضدوع بماأمر به ، فيكون المعنى، فاصدع باطلهم بما أمرت به من الحقِّ والخير، وبهذا يمكنك أن تصور الباطل بصورة زجاج يصده ، فيكون استعارة مكنية ، ويمكن أن تصور الجهر بما أمر به في صورة صدع الزجاج فيكون استعارة أصلية تبعية ، هذا من حيث البصنعة البلاغية العلمية .

والذي هو أليق بالسياق أن تجعل الاستعارة في الفعلِ لأنّه دعوة له أن يجهر بالحق جهرًا يُحدث شقأص وتفريقًا وتمزيقًا وتفتيتًا لباطلهم. وفي هذا دعوى لانتقال من طور المخافتة إلى طور المجاهرة، ما يقيم في قلوب أعدائه، أن كل ما يجتهدون في التفنن في مصادمته وإيقاء الأذي بأصحابه لإنما يزيده قوة وثباتًا ، فيقُوم القنوط والإبلاس في قلوبهم من أن يكون لهم أثر في أن يكفوا دعوتهم ، وفي هذا تهديم لشعورهم بالقوة والغلبة ، وأنّهم بالغون مرادهم من دحر دعوتِه.(١٠)

---

١٠) يقُول السيوطي في معترك الأقران:« استعير الصدع، وهو كسر الزجاجة، وهو محسوس، للتبليغ وهو معقول.والجامع التأثير وهو أبلغ من بلِّغ، وإن كان بمعناه، لأن تأثير الصدع أبلغ من تأثير التبليغ، فقد لا" يؤثر التبليغ، والصدع يؤثر جزما. » [معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)

المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ج: ١ص٢١١]

وقال ابن أبي الإصبع: المعنى صرِّح بجميع ما أوحي إليك، وبلغ كل ما أمِرت ببيانه، وإن شقَّ بعضُ ذلك على بعض القلوب فانصدعت، والمشابهةُ بينهما فما يوثره التصريح في القلوب، فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من القبض والانبساط، ويلوح عليها من علامات الإنكار أو الاستبشار، كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة، فانظرإلى جليل هذه الاستعارة، وعظيم إيجازها، وما انطوت عليه من المعاني الكثيرة.

ففي قوله تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ من الإيجاز ما إن رغبت في تفصيل مكنونه،وتثوير مكنوزه، ما لك أن تبلغ غاية التي تريد،وهذا وجهٌ من وجوه إعجاز بلاغةِ القرآن .

وما نقل عن أبي عبيدة أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ [الْحجر: ٩٤] فَسَجَدَ وَقَالَ: سَجَدْتُ لِفَصَاحَتِهِ.

وقوله ﷻ :﴿ وَأعرِض عَنِ الْمشرِكين﴾ ليس القصد إلى أن يعرضَ عن دعوته، فقوله ﷻ:﴿ فاصْدَع بِما تُؤمَر﴾ قرينة علىأنه لا يعرضُ عن دعوتهم أوإنما يعرضُ عن التأثر بما يكونُ منهم مصادمة،فإنه الله سيكفيه ما يكون منهم. ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر:٩٥) تبصر نظم هذه الآية بكل ما فيها من عوامل التوكيد والتأطيد : قوله﴿إنا﴾ بكل مايفيض به من العزة والجلال، وقوله ﴿ كفيناك﴾ دون قولنا (سنكفيك) غخبار منه أن هذا قد وقع، ولن يكون شيْءٌ بتةً من تحققه ،وهو كفاية له - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – ولرسالته وسنته . ففي هذه الآية آية بينةٌ على أن الله ﷻ حافظٌ سنته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – كمثل ما هو حافظ كتابه، فالكفاية في قوله ﷻ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ محيطة بكل شيءٍ متعلق به: ذاته ورسالته وسنتهوسيرته... كل ذلك تكفل الله ﷻ به . فأنَّي لأحد أن يكون له ما يُمكن أن يلحق بدعوته،وسنته،وسيرته، فكلما هم مأفون أن يفكر في الإساءة إليه أوإلى دعوته أو سنته، او سيرته، كان له من الله ﷻ على أيدي محبي سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم – ما يدمغه

****

[المَوضِعُ الثّـالث]

وممّا تدبّر الرّماني ما فيه من "الاستعارة قول الله عزَّ وجلّ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[الحاقة:١١] مبينا عن حقيقة معنى ﴿طغى﴾ ومناظرًا حال المعنى في أصل اللغة،وفي الاستعمال الاستعاريّ في الآية ، موجهًا سمُوه الوظيفيّ في البيان .يقُول :« حقيقته "علا" والاستعارةُ أبلغ ؛ لأنّ "طغى" علا قاهرا ، وهو مبالغة في عظم الحال. »

يريك أنّ ما بيْن" علا" وطغَى" مفارقة في النّوع : "العُلُوّ" ارتفاعٌ مطلقٌ ، بينما "الطغيان" علوّ قاهر، وقد استصحبُ استعمالُ مادة «طغى»في اللسان العربي في سياق القهر،فليس كلُّ "علو" قَهر، فكَم مِن عُلُوٍ يحملُ رحمةً ورأفة، بيْنا لا يكون طغيانُ وفيه رحمةٌ ، فهذا التّلازم في الاستعمال والوعي

الإدراكي، جعل استعمال الغعل "طغى" في هذا السياق أقدر على تصويرِ ما حلّ بأولئك الذين كذّبوا ما جاءهم به نبيهم.

تَبْيِينٌ وَتعقيبٌ

هذا البيان الوجيز الدّقيق تتكاثر معانيه في فؤادك إذ تتبصر الآية في سياقِها. جاءت الآية في سياق سورة«الحاقة»وهذا التسمية جامعة في فؤادك الرشيد سمات ما جاءت تعربُ عنه، وما جاءت تفعم فؤادك به، ليكون زادك في سعيك إلى بابِ مرضَاة ربك - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وحسن تبصر منهاج القرآن في إقامة كل ذي فؤاد رشيد ببيانه المعجز والمنير الأفئدة الشهيدة من أجَلِّ ما يُعين على أن يجعلك قرآنيًا في جميع أمرك.

والأمة بل والإنسانية جمعاء بل والدنيا وما فيها في عوز بالغ إلى ذلك الرجل: رجل القرآن.

تجري آيات السورة لتأطيد هول يَوْمِ الْقِيَامَةِ في الأفئدة، ولَتَهْدِيدِ من يكذب بها ،وتذكيرهم بما حلّ بمن كان قبلهم ممن كذب بها،وهم أشدّ منهم بأسًا ، وتبيان ما كان لمن آمن بها من تنجية، وتثبيت سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم – وإعلاء شأنه.

وفي ما سميت به السورة إنباءٌ عظيم بأنَّ كلَّ ما هو قائمٌ فيها حقّ واقعٌ لاريبَ فيه.

جاءت الآية في سياق ما حل بثمود وعاد وفرعون وقوم لوط ،وما حل بمن كذب بنوح عليه السلام فقال:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّام حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾[الحاقة]

كلّ ذي أذن واعية، وفؤاد رشيد حين يسمع هذه الآية، ويعلم أنّ هذا إنّما حل بهم من تكذيبهم أبنياءهم، فيما أخبروهم به من شأن يوم القيامة، يكاد ينخلع قلبه من هول ما سمع ، ولا سيما إذا ما كان ذا اقتدار على أن يحيل مسموعه

مشهودا : تسمع أذنه الواعية، فترى بصيرته النافذة المحيطة ، فكانه قائم في ما تسمع أذنه الواعية.
ما يتحقّق لمن قرأ أو سمع هذه الآية واستحضر أنَّ الذي يقولها إنما هو الحق ﷻ يكاد يكون مقيمَه في منعةٍ من أن يتحرك شيْءٌ منه بما لايُرْضي الله تعالى، فمن مسه طائف من الشيطان يغريه بما تشتهي النفس في طورها الإنساني ما عليه إلى أن يعتكف سميعًا بصيرًا لهذه السورة، فإنه لامحالة سيكونُ في حصنٍ إيمانيّ لا سبيل لجحافل الشَّياطين أن يطوفوا حول حمَى فؤاده المنير بالإيمان والإحسان..
في قوله ﷻ :﴿ إنّا لَمَا طغَى الماءُ حَملْناكُمْ فِي الْجارية ﴾ تتجلّى لفؤادك معالم جلالِ الألوهية وقهرها وعزتها ممزوجًا بها جمالُ الرّبوبية ورأفتها .وذلك وجه من وجوه أعجاز القرآن .(١١)
في تقدم قوله نعالى «لمَّا طَغَى المَاءُ» تشويقٌ للعرفان بما كان في هذه اللحظة الرَّهيبةِ المصوِّرة لجلال ألوهيته وعزتها ليفجر منها جمال ربوبية «حملناكم في الجارية » وفي الإعراب عن الفلك بالجارية تصوير عظيمةٌ لقدرة الله ﷻ ممزوج فيها رحمته ورأفته بمن أطاع رسُوله.
وفي هذا تأنيس فَتِيٌّ لكلّ مَن آمن بما أمر الله ﷻ الإيمان به أنه مهما تكالبت الأهوال فإن الله ﷻ مقتدرعلى أن يُنجيه منها .(١٢)

****

[المَوضِعُ الرابع]

(١١) إن شئت أن تطعم ما في قوله تعالى﴿إنّا لمّاطغَا الماء حملناكمْ فِي الْجارية﴾ فاهرع إلى سورة«هود» واستبصر متدبرًا ماداء فيها من قصة سيدنا نوح عَلَيه السلام(الآيات:٢٥- ٤٩) فإنك إن فعلت فهمت شيئًا من المعانى الإحسانية في قوله تعالى﴿لمّا طَغى الماء) لتفقه المنهة الربانية التي في قاله تعالى ﴿ حملناكم في الجارية) وهذه الآية تحقق في حياة كل مسلم ربانيّ قرآني إلى قيام الساعة. فتبصر ما يُخيط بك من طوفان الموبقات ،وواسع إلى أن يكون له نصيب من﴿ حملناكم في الجارية﴾ فالحمل في الجارية عطاء رباني دائم مقيم متجدد لا ينفطع لكل من كان قرآنيا محمديًا، فهل ولم أن نجاهد لنكون.؟
(١٢) بقي أمران أدعهما لك لتطعم من عملك ، فذلك خير لك إن شَاء الله تعالى:
الأول: أن تتبصر قوله تعالة ﴿ في الجارية﴾ وناظره بالإعراب عنها في سورة هود بقوله﴿ الفلك﴾ وما في قوله : الجارية من معالم الجلال ،ومعالم الجمال..
وألاخر :قوله تعالى ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ وحقَى بك أن تسعى للعرفان وامتلاك ما يجعل أذنك واعية ما يزيد قربًا منربك في مسيرك ومصيرك

وممّا عُني الرُّماني بتبين ما فيه من" استعارة " قول الله ﷻ : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقة:٦]
يقُول :« حقيقته شديدة ، و"العُتوّ "أبلغ منه ؛لأنَّ "العُتو" شدة فيها تمرّد. »
هذا الذي أوجزه الرّمّانيّ يمكنك أن تثوّر مكنوزه في فؤادك الرشيد، فيفعمه بالشعور الصادق العتي بجلال الألوهية وما في هذا الجلال من جمال الربوبية لمن كان لله تعالى عبدًا قانتًا.

تبيين وتعقيب

لتستحضر ما مضى من القول في سياق يورة " الحاقة" وما قلت في تثوير قوله تعالى ﴿ لَما طَغَى الماءُ... ﴾
ناظر قوله ﴿ عاتية ﴾ نعتًا للريح، بقولِه تعالى ﴿ طغى﴾ فعلًا مسندًا للماءِ .
ولوأن الرّمانيّ قدم القول غي وق الله ﷻ على القول في قوله تعالى لكان أجودَ عطاءً، ولو أنه تنازل الاستعارات جميعًا في السورة من أوّل قوله ﷻ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ لكان ذلك أمجد وأحمدَ .
قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ جاء مستهلًا لبيان ما كان من قوم «عاد» وهم عربٌ كمثْل قوم سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم – وما كان من عقاب الله ﷻ لهم
وقد جاء تصريف هذا النبا في مواضع عِدّة من الذكر الْحكيم. وفي كل موضِع من عطاء الربوبية ما يغريك بأن لا تستغني بموضِع عن موضع ولو تلاوة، فكيف إذا ما جمع إلى التلاوة تبصرًا وتدبرًا ؟ يقُول الحق ﷻ : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) ﴾ [فصلت]
﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا

أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)﴾[الأحقاف]

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾[الذاريات]

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)﴾ [القمر]

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)﴾ [الحاقة]

تصريف البيان القرآن عمّا كان من قوم هاد في الأحقاف، وما كان لهم من عقابٍ تذكرةلقوم سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم - فيه حثٌ على أن يتبصره كل عقيل ، ولا سيما قوم سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم - :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ﴾ [الرُّوم]

قراءة هذه الآيات السابقة كلها معينة لك على حسن تبصر ما هو مكنوز في الاستعارة في قوله تعالى ﴿بِرِيحٍ صَرصَرٍ عَاتيةْ﴾

جاء الإعراب بالإفراد﴿ريح﴾ وأهل العلم يقولون إذا كانت للعذاب أفردت، وإذا كانت ريح خير جمعت«رياح»:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف٥٧]

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[الحجر]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾[الفرقان]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾[الفرقان]

ويمكنك أن تلحظ في إفراد ريح العذاب معنى أنها سواء في قوتها ،وفعلها، فما هي بمتفاوتة في إبادة من تحل بهم وأن تلحظ في الجمع معنى التنوع بحسب ما تكونُ له. فهي للسفن غيرها للزرع ، غيرها للغيث، فلكل نوعه وقدره وزمانه من الرياح.

وفي نعت الريخ بأنها ﴿صَرصَر﴾ اي الجامعة بين شدة البرد والصوت،فهي ببردها،وبصوتها قاتلة مبيدة مبيرة. وفي التكريب الصوتي ما يصور لك هذا .

يقُول الزمخشري في كشافه« والصرصر: الشديدة الصوت لها صرصرة، وقيل: الباردة من الصر، كأنها التي كرر فيها البرد وكثر، فهي تحرق لشدة بردها.»

ثم نعتها بقوله تعالى ﴿ عاتية﴾ أس شديدة تجعل عتو عاد بجانبها كلا شيْءٍ . يقُول الطاهر ابن عاشور في تأويل الآية :« والعاتية : الشديدة العَصف ، وأصل العُتُوّ والعُتِيِّ : شدة التكبر فاستعير للشيء المتجاوزِ الحدَّ المعتادَ تشبيهاً بالتكبر الشديد في عدم الطاعة والجري على المعتاد .»

وكأن في هذا تصويرًا لمبلغ غضب الريح عليهم لما كان منهم مع نبيهم ، فإذا كان هذا شأن الريح مع من يفعل فعلهم، فكيف يكون حالك أنت مع من يفعل من قومك أحفاد عاد مع ربهم،وسنة رسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ : أتساندهم وتصاحبهم،وتدافع عنهم وتكسر سوادهم وأموالهم ؟

أنت إن نظرت في حال كثير ممن حولك في عصرك ومصرك رأيت غير قليل من أحفاد قوم "عاد" يفعلون مع كتابِ الله ﷻ ، وسنة رسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – ما لايقل عن فعل قوم عاد ،مع دعوة نبيهم، ورأيت أيضًا من قومك من يساند حفدة قوم عاد من قومك. فإين أنت منه أولئك.؟

نحن لا نقرأ القصص القرآني كمثل مانقرأ القصص الأدبي الأبداعي، كلّا ، لا يستقيم بتةً ، ما أنزل الله تعالى هذا القصص لهذا أول ما يجب على كل قارئ لقصة من قصص أقوام الأنبياء أن يكون معصومًا من أنيكون له من

حالهم نوفعلهم أدنى نصيب ، وأن يكون منه أدنى مقاربة من أحفادهم في قومه.

ما من قوم من الأقوام السابقين قصَّ الله ﷻ علينا قصصهم إلّا وفي قومك الآن أحفاد لهم تشابهت قلوبهم،وأقوالهم ، وأفعالهم،وأحوالهم ظاهرًا وباطنا ، فهل لك أن تتخذ منهم موقفًا يرضي عليك ربك ﷻ فإن لم تفعل ، فما قرأت شيئًا من قصصِهم في كتابِ الله ﷻ وسنة رسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - .

⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂

[الموضع الخامس]

وممّا عرضَ الرّمّانيّ لبيان ما فيه من"الاستعارة" قولُ الله ﷻ :

﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُور *تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير﴾ [المُلك:٧-٨]

يقُول:« شهيقا حقيقته صوتا فظيعا كشهيق الباكي ، والاستعارة أبلغُ منه وأوجزُ .

والمعنى الجامعُ بينهما "قبحُ الصَّوت"

﴿تميَّزُ مِن الغَيْظ﴾ حقيقته: من شدّة الغليان بالاتقاد ، والاستعارةُ أبلغُ منه ؛ لأنَّ مقدارَ شدَّة الغيظِ علَى النفس محسوس مُدْرَكٌ ما يدعو إليه من شدة الانتقام ، فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل ،وفي ذلك أعظم الزجر وأكبر الوعظ ، وأدل دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة.»([١٣])

---

[١٣]) تذكير الفعل في قوله:« فقد اجتمع شدة في النفس..» وظاهرهأنيؤنث للتأنيث الماجازي في شدة، لكنه عربية يعدل من التأنيث في مثل هذاإلى التذكير للدلالة على قوة" الحدث" وهذا من شجاعة العربية، والعدول تذكيرا وتأنيثًا في البيان القرآني عير قليل، ولكل عدول من العطاءات ما يزيدك إيمانًا إن تبصرته،ومن ذلك {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِين}[يوسف:٣٠]

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُون}[البقرة:١١٣]

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير}[المائدة:١٨]

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِين}[المائدة:٦٤]

أبان الرّماني عمّا تؤول إليه الاستعارة في الآيتين ، ووجه أبلغية الاستعارة وسموها على الموضوع له اللفظ في الآيتين في أصل اللغةِ ،وما يترتبُ على ذلك في الفؤاد الرشيد المحسن تلقي هاتين الاستعارتين في سياقهما.

وهو بهذا يضع يدك على مكان الحسن وعلّته، ويدعُ لك استطعام ما فيها. ويَضع في يدك مفاتح التبصر، فلم يبق عليك إلا أن تعمدَ إلى ما هو بك أولى ؛ ليكونَ لك من هذا النبإ العظيم ما يجعلك في مسيرك ومصيرك في منعة من أن تكون من أهل هذه النار . فإن أبيت إلّا أن يُوضع لك طعامك فؤادك بين يديك، فإني أعيذك بالله تعالى من أن تكون.

ألم تسمع ما رواه البخاري في كتاب "بدء الوحي" من صَحيحه بسنده :« عَنِ الْمِقْدَامِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ.»[البخاري:بدء الوحي.حديث رقم:٢٠٧٢]

تبيين وتعقيب

جاءت هاتان الآيتان في سورة "الملك" ،وهي الشّافعة ،والمانعة،والمنجبة والمجادلة(١٤) وكل اسم من هذه الاسماء مشير إلى مزية في هذه السورة، وكثرة اسماء السورة يلفت إلى ما فيها من أبعاد يدل كل اسم على واحد من هذه الآبعاد ، وعلى ما اشتملت عليه من المزايا المقصدية، وهذا يوجبُ على المتلقي أن يبحث عن معالم آثار كلّ اسم من هذه الاسماء ، ولا سيما ما كان من هذه الأسماء واردًا عن سيّدنا رسُول الله ﷺ أو عن فقهاء الصحابة ﵃ واستهلال هذه السورة يُفعم الفؤاد الرشيد بآثر جلال الألوهية، وجمال الربوبية، يتجلى لك جمال الربوبية من قوله ﴿تبارك﴾ مثلما يتجلى لك جلالُ الألوهية

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون}[التوبة:٣٠]

فالتأنيث في مثل هذا دالٌ على أن الحدث غيرً قوي/،وأنه ضعيف الأثر، والتذكير دالٌ على قوة الحدث أو صدقه، كمثل ما تقول طلع الشمس ،إذا كان طلوعها متأججًا كما في فصل الصيف في أقطار الجنوب.

١٤) مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ ، تأليف برهان الدين الباعي.(ت: ٨٨٥هـ) دار النشر: مكتبة المعارف – الرياض (ط:١) ١٤٠٨ هـ - ج:٣ص١٠٣ -١٠٤

من ما بعده في الآية ومن تحت الجلال جمالٌ، ومن تجت الجمال جلال، فتبصر.

جاءت هاتان الآيتان في سياق قوله تعالى ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُور * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِير * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِير * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِير * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُور * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير ﴾ [المُلك:١ - ٨]([١٥])

سورة "الملك" لها من الفضائل ما جاءت في مدونة "السنة النبوية" وتعدد فضائل السورة يهدي إلى كثيرٍ من خصائصها ،وما هو مكنوز فيها من دقائق المعاني الإيمانية الإحسانية، وكادت هذا السورة تكون من أكثر السور التي يحرص جمع كثيرٌ على قراءتها يوميا، ولاسيما في ليلهم لما علم الناس من فضلها في الشفاعة لصاحبها إيمانا وترتيلا وفهمًا وتأدبًا .

آياتها الخمس الأولى" طليعتها" تجمل لك ما يُجلّي معالم جلالِ الألوهية الممزوج بها معالم جمال الربوبية، لتأتي ست آيات متتاليات (٦-١١) تبين حال الذين كفروا بربهم في مسيرهم، ومصيرهم ، وقد أجملت ما كان منهم في مسيرهم بقوله تعالى ﴿ الذين كفروا﴾ ثم فصل ما سيكون لهم من العقاب في مصيرهم. وبسط القول في هذا بسطًا يجعل من تلقى هذه الآيات بأذن واعية، وقلب رشيد يفر مما وصفوا به: ﴿ كَفروا بربهم﴾ (١٦)

---

[١٥]) في ترتيلك هذه الآيات من قَبْل أن تمارس التبصر من عوامل إعانة بصيرتك على أن تدرك ما هو مكنوز في الآية ماط النظر من المعاني الإحسانية، لما يمنحك حسن ترتيلها من الحسنات التي بها تعلو على سيئاتك ، فتضعف بذلك عوائق التلقّي وتقوى عوامله. ليكن هذا ديدنُك ، فوق ما في ذكر الآيات السباق واللحاق للآية مناط النظر، وما للوعي بهذا السباق واللحاق من إعانة يكون لك من ترتيل آيات السياق ما ذكرت لك ، فلا تجعلن بصيرتك تتجاوز ترتيل السياق واللحاق إلى مناط النظر، فإنك إن فعلت خسرت ما لا طاقة له بخسرانه.

([١٦]) كلمة الكفر معناه في أصل الوضع اللغوي" الستر" وجاء في القرآن كفروا بالله ، وكفروا بآيات الله ، وكفروا باليوم الآخر، والفعل "كفر" يتعدى بنفسه، فما بال هذه "الباء" وهل من فرق بين مكفر بالله،وكفر بآيات الله،وكفر بنعمة الله تعالى. معمول مادة الكفر مطوي ،وهو العلم ،و"الباء" متعلقة بهذا المكوي أي ستروا العلم بالله، أو العلم بآيات الله، أو العلم باليوم الآخر، أو العلم بنعم الله. فالواقع عليه الكفر" الستر" مطوب،

وفي الإعرابِ عنهم باسم الموصول وصلته ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ هداية إلى أن صلة الموصول هي ما يعرفون به ؛لأنّه ديدنهم وسمتهم الذي لا يعرفون إلّا به، فكأن كلّ ما يصدر منهم من قول أو فعل أوحالٍ ظاهرٍ أو باطنا إنما معدنه الكفر بربهم ، وفي الإتيان بفعل الصلة ماضيا﴿ كَفروا﴾ إيماء إلى تحققه، وثباتهم عليه ، وأنهم فيه سواء،

ومعنى ﴿كَفرُوا بِربّهم ﴾ سَتروا علمهم بربّهم الذي تتجلى آثار ربوبيته فيهم وفي ما حولهم، فمن ستر علمه بذلك ،وغطاه، وأنكره فهو من أشد الناس كفرًا وكبرًا وجحودًا.

وفي قوله ﴿ للذين﴾ اللام لام استحقاق ، أي أن هذا العذاب هو من حقهم، والله نعالى عدلٌ لا يظلم الناس شيئًا ، فمن استحق شيئًا بعمله، كان له، وما كان الله تعالى ليبخس الناس ما استحقوه لأنفسهم بأنفسهم ، وفي هذا بالغ التعريض بهم وتسفيههم إذ ختاروا أن يكون حقهم العذاب، ففي هذه اللام من التعريض والتسفيه ما فيه ، فإذا طوى تفصيل ما كان منهم وأجمله في قوله تعالى﴿ كفروا بربّهم﴾ ثم فصل ما استحقوه لأفسهم من العذاب كان ذلك حثًّا لك على أن تدرك تفاصيل فعلهم من تفاصيل ما أرادوا أن يكون استحقاقهم من العذاب في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِير ﴾ [المُلك:٦]

وتقديم ﴿ للذينَ كفَروابِربّهم﴾ مفيدٌ التخصيص غير التحقيقيّ ، فعذاب جهنم بيس بمقصىر على الذين كفروا بربهم ـ بل هو لغيرهم من الذين كفروا ولبض اللذين اقترفوا الكبائر ولا سيّما المتعلقة بحقوق العباد ،ولم يتوبوا من المسلمين. ولكن عذابهم وبقاءهم فيها بالنسبة لعذاب الذين كفروا بربهم كأنه ليس بشيءٍ ـ فبعضُ الغذاب على هوله وفداحته أهونُ من بعض .

وهذا الكفر بعضه أشد من بعض، وبعضه كفر بماهو غيب لهم به علمٌ بتعليم الله لهم، فالكفر باله هو كفر بالعلم بالله، وكل البشر لهم علم بالله. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين﴾[الأعراف:١٧٢] .

أشد الكفر الكفر بآيات الله تعالى، لأنه كفر بما هو مشهود.

« قال الْحَرَالِّي: والكفر بالآيات أبعد الرتب من الإيمان، لأنه أدنى من الكفر بالله، لأن الكفر بالله كفر بغيب، والكفر بآيات الله كفر بشهادة، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} »

كان من فضل الله تعالى أن أشرفت في جامعة أم القرى بمكة الكرمة على رسالة للتخصص (الماجستير) في البلاغة القرآنية عنوانها«الدلالية السياقيةلألفاظ الكفر والعصيان في القرآن الكريم» أعدتها الباحثة المتميزة خلقا وعقلا وعلما: منى محمد الشاهد" فكانت من أنفع البحوث التي أشرفت عليها، وأفدت منها .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥]
وهذا الذي قلته من دلالة التقديم هنا أليق من القول بأنّ« وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ لِلْاهْتِمَامِ بِتَعَلُّقِهِ بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالْمُبَادَرَةِ بِهِ. »
وفي الإعراب عن" النار" باسم "جهنم" إيماء إلى نوع النار التي هي جزاء لهم،وكل نوع من الكفران والعصيان له نوع من النار، فأسماء النار، والعذاب في القرآن فيه إيماء لتوع الكفران والعصيان الذي اقترفه أهل ذلك العذاب ،ومنها تنوعت نعوت العذاب والنار، فليس هذا من قبيل "الترادف"
يقول البقاعي في تفسيره" نظم الدرر" :« وتخصيص هذا الاسم المنبىء عن الجهامة في المواجهة أي الاستقبال بوجه كريه لما وقع منه من المواجهة لمن أمره من مثله. قال الحرالي: فلمعنى ما يختص بالحكم يسمي تعالى النار باسم من أسمائها - انتهى» ،«قال الْحَرَالِّي: وهي من الجهامة، وهي كراهة المنظر - انتهى.»
ومن صور التجهّم التي سيلقاه الذين كفروا بربهم وما شامههم من مدمني اقترافِ الموبقات قوله تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)﴾(الملك]
قوله﴿ألقوا﴾ فيه من تصوير مهانتهم، فكأنهم الحطب يلقى في النارِ ،وذلك من هوانهم وهذا لا يعارض قوله تعالى في سورة«الزمر»:﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِين * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِين﴾ [الزُّمَر:٧١-٧٢]
ذلك أن السّوق يكون في مرحلة من مراحل الدخول، بينا"الألقاء" مصور لحظة إدخالهم فهم يلقون فيها إلقاءً .
وفي تصوير حالهم،وهم يلقون في جهنم ما ينخلع له القلبُ ﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾
الرُّماني نظر إلى ما فيقول الله تعالى : ﴿ شهيقًا﴾ و﴿ تميز﴾ من الاستعارة فريدين، وأنت إن تبصرت رأيت هاتين تنستعارتين عنصرين من عناصر صورة استعارية كلية يُبينها الطاهر ابن عاشور بقوله:« مثلث حالَةَ فَوَرَانِهَا

وَتَصَاعُدِ أَلْسِنَةِ لَهِيبِهَا وَرَطْمِهَا مَا فِيهَا وَالْتِهَامِ مَنْ يُلْقَوْنَ إِلَيْهَا، بِحَالِ مُغْتَاظٍ شَدِيدِ الْغَيْظِ لَا يَتْرُكُ شَيْئًا مِمَّا غَاظَهُ إِلَّا سَلَّطَ عَلَيْهِ مَا يَسْتَطِيعُ مِنَ الْأَضْرَارِ.
وَاسْتُعْمِلَ الْمُرَكَّبُ الدَّالُّ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا مَعَ مُرَادِفَاتِهِ كَقَوْلِهِمْ: يَكَادُ فُلَانٌ يَتَمَيَّزُ غَيْظًا وَيَتَقَصَّفُ غَضَبًا، أَيْ يَكَادُ تَتَفَرَّقُ أَجْزَاؤُهُ فَيَتَمَيَّزُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ وَهَذَا مِنَ التَّمْثِيلِيَّةِ الْمَكْنِيَةِ وَقَدْ وَضَّحْنَاهَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [٥] ... وتَمَيَّزُ أَصْلُهُ تَتَمَيَّزُ، أَيْ تَنْفَصِلُ، أَيْ تَتَجَزَّأُ أَجْزَاءً تَخْيِيلًا لِشِدَّةِ الِاضْطِرَابِ بِأَنَّ أَجْزَاءَهَا قَارَبَتْ أَنْ تَتَقَطَّعَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ: غَضِبَ فُلَانٌ فَطَارَتْ مِنْهُ شُقَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَشُقَّةٌ فِي السَّمَاءِ. »
فهذه استعارة تمثيلية مكنية بعض مكوناتها استعارة. وتأويل النظم بها أليق بالمقام.
والذي أذهبُ إليه فيما يتعلق بصوير ما يكون في يوم القيامة أنه تصوير يقربُ إليك الحقيقة للتخيلها، فهي حقيقة،وهي أجل مما تصوره العبارة،وإنما العبارة جاءت على مفتضى ما يمكن الناسُ إدراكه بقلوبهم،لا على مقتضى الحقيقة التي عليها ما يصور، ذلك أن غقول المتلقين لهذا النبإ العظيم لا قدرة لها على أن تتصور الحقيقة، فتصور لا على قدر حقيقتها، بل على قدر قدرةأعظم وأجل متلق في الإدراك،ولو أن الله تعالى صور لنا ما يكون يكونَ القيامة،لما أطاق أحد من البشر تلقيه، والله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – يقول :
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]
ويقول:﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا [مريم:٩٧]
﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨]
فهذا النهج من قبيل إخراج ما تطيقُ العقولُ والقلوبُ إدراكه إلى ما تطظرأفة بهم، وليس من قبيل إخراج من الصفة فيه أقل تمكنا إلى ما الصفة فيه أقوى تمكنا.
وجميع استعارات القرآن إنما هي مصورة" الحق" المبين تصيرًا يُحيل إدراكنا العاجز
إلى شيءٍ من تخيل الحق الذي غاب عنها :كانّه رأي عين،وستراه رأي عين وقلب لحظة الاحتضار وما بعده ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾ [ق:٢٢]

فحذارِأن تتلقى الاستعارة في بيان الوحي قُرآنا وسنة كمثل ما تتلقاها في البيان البشري شعرًا ونثرًا أدبيا : بيان الوحي إنما يصور لك حقائق واقعه، تصويرًا يجعلك مقتدرًا على تخيل هذ الحقائق
والابداع البشري يصور لك خيلًا لا واقع له خارج الذات الشاعرة، يصور لك هذا الذي هو قائم في دوخله دون خارجه،كأنك تنزره في جوانيه.
فالأديبُ إنما يسعى إلى أن يستضيفك في جوانيه، قي وعيه الشعري بالأشياء ويعرض عليك ما فيه ، ليبلغ منك غايته، ولا علاقة له بما هو خارجه، فأنت تعرفه ،ولست بمفتقر إلى من يدلك عليْه.
وكأني بالأديب المبدع الذي يرينا الأشياء كما هي فيه، يقول لنا لست كمثلكم ، وأنا لا أرى الأشياء كما يراه الناس . إن لي معها شأنًا آخر، وإنّها في جوانيِّ غير ما هي في برانيكم وجوانكم. لست منكم ، وإن كنت فيكم، فمعدن الذهب الرغام . ذلك ما أفهمه من لسان حال الأديب المبدع.

⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂⁂

[الموضع السادس]

وممّا عمد الرمانيّ إلى تبيين ما فيه من استعارةٍ ، وله به بسابقه علاقة . يقول الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]
يقُول:« أي تستقبلهم للإيقاع بهم استقبال مغتاظ يزفر غيظا عليهم. »(أهـ)
إذا أنت نظرت فيما بين آية سُورة«الملك» وآية سورة «الفرقان» رأيت أن كل واحدة تصور حالاً غير الذي تصوره الأخر :
، في سورة «الملك» كان تصوير حال النار حين ألقي فيها الذين كفروا بربهم، وسورة «الفرقان» تصور حال النار حين رأت الذين كفروا من مكان بعيد، وهم يساقون إليها كما أنبأت سورة«الزمر» .
"الزفير" كان منها قبل الدخول،وهم إليها يساقون
و"الشهيق" كان ،وهم فيها يلقون
قُول شيخنا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - :« النّار في الموضعيْنِ هي النارُ المعدة لمن كذب ،ويدرك الرمانيّ ما بيْن الصورتينِ من تَفاوتٍ دقيقٍ محكمٍ ، فالقومُ في سُورةِ" المُلك" الْقُوا فِيها، فكان شهيقًّها شَهيقَ الصّلرخ الباكي ،وفي سورة" الفرقان" رأتهمْ منْ مكانٍ بعيدٍ ، فاستقبلتهم هذا الاستقبال المغيظ المُحنِق .

وكأنَّ الزّفِيرَ الّذى هو إخراج النَّفسِ وإرسَاله أشبهُ بحالِ الاستقبالِ ،والشهيقُ الذي هو رده وابتلاعه أشبه بحال إلقائهم في جوفها، وابتلاغها لهم؛

وتلحظُ فرقًا آخرَ لَمْ يُنبّه إليْهِ الرمانيّ ذلِك هو أنّهمْ حين رأتهمْ سمعوا لها تَغيّظًا ، ولَمْ تكد تتميّز من الغيظِ إلا حين ألقوا فيها، وحينئذٍ كادَتْ تنْشَقُّ أيْ أنّها اتّقدتْ بِهمْ اتّقَادًا هائجًا مغتاظًا حتّى كأنها من شِدّةِ ما تجدُ في جوفها من لهيبٍ وسُعارٍ تكادُ تنفجِر»(١٧)

تبْييـن وتَعقيب

الرّماني كما رأيت أوجز بيانه الاستعارة في قوله تعالى ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ ملتفتًا إلى حالها مستقبلة، لا حالها محيطة بهم كما في آية" الملك" وشيخنا بين لنا الفرق بين ما جاء البيان به في سورة" الملك" وما جاء في سورة" الفرقان" واقتضاء كل.

ولعلنا ننظر في آيات سورة" الفرقان" فنبصر شيئًا مما هو مكنوز من المعاني الاحسانية التي في طليعة سورة" الفرقان"

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦) وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ

---

١٧) الإعجاز البلاغي. ص:١٢٤ .

وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾[الفرقان] (١٨)

سورة«الفرقان »سورة مكية نزلت قبل سورة«الملك» والعلاقة بين السورتين قوية ظاهرة ، ليس في المفتتح بل وفي مواضع أخر من كلٍّ . وبيتهما متناظرات،ومتفارقات ،وكل ذلك يُكملُ حسن الرؤية القلبية للسورتين.

من ذلك الموضعِ الذي تناول الرماني تببين الاستِعارة في كلٍّ ، ومقتضى الظاهرِ أنّ سورة الفرقان تتحدث عن شهيق النار، والملك تتحدث عن الزفير من أن الشهيق يسبق الزفير ، فلا يكون زفيرٌ إلا من شهيق، ولكن الأمر ليس على ذلك الظاهر، بل الأمر مرجعه إلى حال الناز:

في الفرقان حديث عن النار وقد رأت أهلها من بعيد ، وعليك أنتتخيل المفارقة بين حتال من يرى أهله من بعيد ،حال النار حين رأت أهلها من بعيد . مفارقة عظيكةٌ تريك ماكان من أهلها في مسيرهم الدنيوي.

بينا الملك الحديث فيها وقد ألقي فيها أهلها، وقد ربط شيخنا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - في ما سبق أن نقلته عنه بين الزفير خارجًا منها كأنّه يستقبل الواردين عليها، والشهيق كأنه يبتلعهم وقد ألقوا فيها كما يبتلع المرء نفسه في الشهيق.

وفي تسميتها " الفرقان" إيماء إلى أنها تتحدث عن المفارقة بين أهلِ الحق وأهل الباطل عملًا وجزاءً. وقد كان حديث سورة" الفرقان" عن أهل الباطل عملًا ومألا أبسط من حديثه عن أهل الحق ومآلهم، إلّا أنه بسط القول في عباد الرحمن في ختام السورة إيماءً إلى أنهم هم الذين لهم الغلبة،وأنَّ عاقبة الأمر لهم.

وسورة الفرقان تتجلى فيها التسلية لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – ومن آمن به وأحبه . وكيفيهم

---

(١٨) يحسن بك – طالب علم تسعى إلى مقام الوراثة - أن ترتل هذا الآيات في خشوعٍ من قبلِ أن تعمد إلى تدبر ما في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ من الاستعارة التي تولاها الرّماني بالتبيين الوجيز الدقيق ، ليكون لك من ترتيلك حسنات، تزيل بعضًا من الران الذي استجلبته على فؤادك بما كنت مستمتعًا باقترافه من العاصي.

إنك أن بقيت على ما أنت عليه لم ترفع عن بصيرة غشاوات الآثام بحسن ترتيل هذه الايات ، فالظن أنه لن يتجاوز نصيبك من النظر فيه الآيات إلّا ما يتناوله عقلك البشري ، وليس لفؤادك الإيماني الرشيد نصيبٌ ، وفرق بين ما يستحصده العقلُ من المعاني، وما يستحصده الفؤاد: العقل يفيدك علما جريدًا، والفؤاد الرشيد يفيد إيمانًا خصيبًا ، فالأَوْلَى بمثلك المزج بينهما، فاستعن بالله تعالى ولا تعجز.

أن سماهم في خاتمة السورة«عباد الرحمن » فهذه الإضافة بالغة التكريم والإيناس .

وفي هذه التجلي بالتأنيس أفهام بالتهديد لمن عانده وأعرض عن هديه.

والتكريم والتأنيس المبسوط في خاتمة "الفرقان" جاء إجماله في سورة "الملك" ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)﴾[الملك] وفي سورة الملك بسطة لما كان من الذين كفروا وما يكون لهم، بل إن عظم السورة معقود لذلك على ما لا يخفى عليك.

ومما بين السورتين من تلاحظ ما تراه فيما يأتي :

سورة الفرقان	سورة الملك
﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)	﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)
﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) ______________________ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)	﴿ وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ______________________ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

******

[يتبع إن شـاء اللهُ تعالـى الحلقة الثالثة]